القيم الجمالية و الروحية في لباس صوفية المغرب الأوسط الزياني من خلال النص المناقبي

أ. زهوة أعزيبي أ. الطاهر بونابي جامعة مسيلة

الملخص

يعد لباس المتصوفة من الأحوال الظاهرة والباطنة كونه يرتبط عندهم بالأخلاق وقيم المتصوفة ،و من هنا صار له مفهوما تعبديا و آخر جماليا و قد ورد في كتب المناقب والتراجم حول لباس متصوفة المغرب الأوسط ،ما يبين أنه لم يكن على شاكلة واحدة، و إنما لباسا تعددت أزياءه بين الحسنة والخشنة ،تبعا لنهج الصوفي و اختياراته في الإنتماء إلى الطريقة الصوفية مثل :المدينية والشاذلية والتازية ، التي كانت طرقا معلومة الأزياء .

و حتى يكون لهذا اللباس رخصة من الشريعة والسنة النبوية ، أوجدوا له من التسنين و التقعيد، ما جعله من صميم الاقتداء بالأنبياء و السلف درءا للازدراء و الاستهجان ، وهي الوظيفة التي اضطلع بها أصحاب كتب المناقب خلال العهد الزياني.

مقدمة:

يتوفر المغرب الأوسط على عديد المدونات المناقبية التي تعد نصوصها مفاتيح نستطيع من خلالها الولوج إلى رمزية لباس المتصوفة و مرجعياته العرفانية و تجلياته الجمالية ، و من ثمة لم يعد موضوع لباس المتصوفة مجرد سلوك يقرأ ضمن الوصف العادي الذي يوصف به المتصوفة ن من خلال دلالات الزهد و الورع و الصلاح و التي تصب في خانة الزهد في الدنيا و زينتها . و إنما تصب حمولته في معالجة التلازم بين المظهر و الجوهر في لباس المتصوفة ، و بمعنى آخر التوصل إلى الكيفية التي استطاع بها أصحاب كتب المناقب الربط بين لباس المتصوفة و ما يرتبط به من قيم جمالية جسمانية و قيم السلوك الممارس كالزهد و الورع و التقرب إلى الله و إظهار نعمه على عباده ، و هي الثنائية التي تتباين مستويات معالجتها ووضوحها من نص مناقبي إلى آخر .فهل معنى ذلك أن هناك تفاوت في قيمة هذه النصوص بالنسبة لموضوع اللباس أو أن منطق المعالجة لهذا التلازم يختلف من زمن إلى آخر و بالتالي تختلف ضمنية المعالجات ؟ ثم إلى أي مدى طبع الانتماء الإجتماعي للمتصوفة مسألة التلازم بين القيم الجمالية للباس و القيم العرفانية؟

1- النص المنقبي بين الالتزام الصوفي والمنحى الجمالي.

لا شك أن حمولة النص المناقبي و تنوع موضوعاته الأسطوغرافية جعل أصحابه فيها يتصل بمعالجة موضوع لباس المتصوفة يكتبون حوله بمنظور من الثقافة الصوفية ذات المعارف الواسعة ،انطلاقا من اهتماماتهم بهذا اللباس في نطاق البيوتات الصوفية كما هو الشأن عند ابن مرزوق الخطيب (ت 781ه) و ضمن مجموعة من الصوفية العرفانيين كالذي تجسد في مدونة ابن صعد التلمساني (ت 901ه) أو في رصد محمد بن عمر الملالي (ت 897ه) لثقافة اللباس الصوفي عند محمد بن يوسف السنوسي (ت 895ه)، وقد يتعدى الرصد المناقبي إلى تجسيد أشكال اللباس الصوفي الوافد على المغرب الأوسط من بيئات أندلسية و مغربية و مشرقية كالذي اضطلع بوصفه أبي العباس أحمد الغبريني (ت 704ه) ، مما يدل على أن هناك نوع آخر في اللباس الصوفي لم يعد خاضعا لطبيعة التوجه العرفاني أو الانتماء إلى الطريقة وحسب ، و إنما كذلك مظهر للثقافة الصوفية الوافدة في مستوى اللباس و ما يتصل بها من ملمح صوفي .و كل ذلك رصدناه على النحو التالي:

أ - المناقب المرزوقية: التنوع، الشمولية، التفعيل.

ضمن ابن مرزوق الخطيب (ت781ه) في كتابه المناقب المرزوقية إلى جانب الأحداث اليومية للأسرة التلمسانية كذلك تفاصيل دقيقة حول ثقافة اللباس و أصنافه و ألوانه و ما يتصل به من إشارات مهمة إلى حرفة الخياطة والخياطين.

و يحسن التذكير أن المعلومات الواردة ضمن هذا النص المناقبي حول اللباس لم تكن مجرد معلومات خاصة تتعلق بعائلة ابن مرزوق، أو شخصية محورية بعينها كما هو الحال في العديد من نصوص المناقب التي تؤرخ لمناقب الشخصية النموذجية، و إنما هي معلومات متنوعة تتسم بالشمولية حيث مست مظاهر اللباس بتلمسان و صناعة الصوف الرفيع بها و كيفية تصديره و الرواج الذي لقيه من طرف ملوك المغرب[1]، فضلا على معطيات ثمينة حول الأسر الحرفية التلمسانية كعائلة ابن النجار وابن الخياط وابن القطان[2].

وأكثر ما يهمنا في المناقب المرزوقية ما ورد حول ثقافة اللباس التي تعكس كذلك المنحى الصوفي لعائلة ابن مرزوق، و المتمثل في الطريقة المدينية[3] – التي كان من أساسياتها التأنق في الملبس وارتداء الثياب الحسنة والتطيب برائحة المسك والمركوب الفاره-[4]، وهو الأمر الذي أخبرنا به ابن مرزوق الخطيب عن والده وأجداده الذين كانوا يلبسون أجمل الثياب وأحسنها[5].

وقد كان المرازقة بهيأتهم هذه يحاولون ترسيخ قيم جمالية هي من صميم الطريقة المدينية التي ورثوها – وورثوا معها خدمة العُبّاد وضريح أبي مدين شعيب، و حسبنا أن حديث ابن مرزوق الخطيب (ت781ه) عن أناقة عائلته وطريقة لباسهم كان يمثل في وسط تلمسان دعوة صريحة وفسحة إشهارية لتفعيل مثل هذه الأدبيات الجمالية في الأوساط الخاصة والعامة، و التي كان جده يقوم بتفعيلها عمليا، فقد اشتهر بأنه كان يكسو بعض أصحابه وعيالهم كل عام رغبة منه في تعميم تعاليم الطريقة المدينية التي دعت إلى الاهتمام بالزينة واللباس،و تزداد رواية ابن مرزوق أهمية كونه تلقى بعض المعطيات حول اللباس عن نساء العائلة ،ولا يخفى ما للنساء من ميل و طرافة إلى الاهتمام بتفاصيل ودقائق الأمور التي تتعلق بالناحية الجمالية للباس.

ب- روضة النسرين، مآثر أهل الصوف.

تكمن أهمية روضة النسرين[6] ، في وصف ابن صعد(ت901ه) لثياب المترجم لهم و هم الأولياء الأربعة، متبعا توجههم الصوفي كون اللباس هو جزء من طقوس الطريقة، ومن القرائن أن حديثه عن ملابس الهواري (ت843ه) وأبركان (ت857ه) والتازي (ت866ه) والغماري (ت874ه) لم يكن حديثا عرضيا بل كان ذا هدف مقصود وخطاب واع، فكلما وصف ثياب ولي من هؤلاء الأربعة يقوم بتبرير سبب اختيار الولي لهذا الصنف من الثياب.

و بالتالي فإن ذكر اللباس عند ابن صعد ليس مجرد ثياب تستر العورة وتقي البرد وتحفظ البدن، إنما هي عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه، وهي جزء من المجاهدات التي توصل إلى بساط القرب والمشاهدة وبها يبلغ القلب درجة أهل المعرفة والحكمة فيعرف بالجمال جمال الربوبية وإخلاص العبودية[7]. و يظهر ذلك في معرض حديثه عن لباس الهواري (ت843ه) والذي كان يرتدي كساء من صوف خشن، اقتداء بمن تقدم من المتصوفة ، و ذكر متعلقا على ذلك بأن تسمية الصوفية من لفظ الصوف

وهو لباس الأنبياء وعضّد ذلك بأحاديث نبوية[8]، ليعلن في الأخير أن الهواري (ت843ه) ممن تجرد عن لباس الدنيا برداء أهل الخصوصية والحياة.

و يبدو أن وصف ابن صعد للباس المتصوفة وشرعنته، هي دعوة صريحة منه لتفعيل مثل هذه الأزياء التي تدعو إلى الزهد والتقشف في الملبس وعدم التأنق فيه[9] ونبذ الاختيال والتفاخر بما هو فانٍ والاهتمام بجمال الروح والسمو بالفعل والذي هو باق، فهي منه حملة تحسيسية لقيم الزهد والتواضع والورع والترغيب في نشرها بين الصوفية و المريدين .

ج- المواهب القدوسية وميزة التعميم بالتخصيص.

لعل ما يثير الانتباه في كتاب المواهب القدوسية لمحمد بن عمر الملالي (ت 897ه) أنه اقتصر على ذكر لباس الشخصية المحورية في نصه المناقب[10] و المتمثل في محمد بن يوسف السنوسي(ت895ه)، لكنه ذكر بأن لباس السنوسي كان لباس أهل تلمسان، مما يعني أنه كان يرتدي ما كان متعارفا بين الناس[11].

ثم إن وصفه للباس السنوسي كان دقيقا ومفصلا،فقد ذكر الأنواع والألوان وذكر لباس المصيف والشتاء والأحذية المنتعلة آنذاك، فهذا السلوك المتمثل في لبس المتعارف عليه بين الناس وعدم ارتداء لباس مخصوص بأهل الطريقة والحقيقة هو من جوهر ولب السلوك الحسن في المذهب المالكي حيث سئل الإمام مالك عن لباس الصوف الغليظ فنكر ذلك لأن فيه شهرة[12]، وهو ما يوضح ازدواجية العمل بالمذهب المالكي والتحلي بالروح الصوفية العرفانية.

هذا بالإضافة إلى ما ورد من إشارات محتشمة حول لباس بعض الشخصيات الذين لهم علاقة مباشرة مع السنوسي(ت895ه) مثل حفيده وشيوخه كالحسن أبركان(ت857ه) والثعالبي(ت875ه)[13].

د- عنوان الدراية .. الملمح العام والسياق.

تكتسي المعلومات الواردة في عنوان الدراية حول اللباس أهمية كبيرة رغم قلتها حيث وردت في السياق العام للشخصيات المترجم لها وهي كذلك تسمح لنا بإعطاء صورة عن لباس الأولياء و الزهاد و الصلحاء في بجاية خلال القرن السابع الهجري ، كون نص الغبريني هو أقرب إلى كتب المناقب منه إلى التراجم.

و من هنا تعكس إشارات الغبريني (ت704ه) عن أسماء و أنواع اللباس الصوفي منها : المئزر والقميص والعمامة والقرقة والشملة والرداء والطيلسان[14] ، و هذا ما يوحي لنا بتعدد الأزياء واختلافها كما يعكس في آن واحد تعدد التيارات والاتجاهات الصوفية التي كانت ببجاية خصوصا و أن المدنية كانت قبلة للوافدين من صوفية الأندلس و المغرب و المشرق ، مما يعني أن هناك الوافد من اللباس الصوفي أيضا على اللباس الصوفي المحلي ما يعكس في نفس الوقت مجمل التيارات الصوفية الوافدة على مدينة بجاية و التي خصها الغبريني بالوصف .

2- لباس المتصوفة بين تعاليم الطريقة واختلاف المنطقة:

من خلال كتب المناقب التي بين أيدينا فإن مجمل الملابس التي ارتداها صوفية المغرب الأوسط يمكن حصرها في القائمة التالية: الجبة، البُدن، الإحرام التونسي[15]، العمامة[16]، الغفارة، الرفيع التلمساني، الفريكة، الفضلة، لمقلة، اللحاف، الحارز الاسكندراني، الإحرام[17]، الكساء[18]، السباط، النعل، الثوب [19]، البرنس[20]، السترة، الجزمة، القباء (التشامير)، السلهام [21]، العباءة[22]، الطيلسان، الرداء، الوزرة، الشملة، القميص، المئزر، القرقة، الطاشور[23].

و من خلال هذه القائمة يتبين لنا أن ملابس المتصوفة في المغرب الأوسط ليست على وتيرة واحدة إنما هي مختلفة ومتنوعة، وعدم إلمامنا بكل المصادر المتوفرة فيما يخص الموضوع جعلنا نتحفظ كثيرا عن إبداء بعض الأحكام والتعميمات، لكن هذا لا يمنع من تسطير بعض الملاحظات والتي يمكن إجمالها في النقاط التالية:

أولا : أن أسماء الملابس في منطقتي شرق المغرب الأوسط (بجاية وما جاورها) والغرب (تلمسان وما جاورها) تعرف اختلافا واضحا، حيث عرفت بجاية الطيلسان والرداء والشملة والمئزر والطاشور وغيرها، وعرفت الثانية الجبة والبدن والإحرام والقباء وغيرها، وهذا الاختلاف في لباس المناطق فرضته التوجهات الصوفية للمنطقة من جهة والمؤثرات الخارجية كالهجرة البشرية وحركة البيع والشراء والمبادلات التجارية من جهة أخرى، ومن جهة ثالثة يمكن اعتبار اختلاف التضاريس والمناخ عاملا مهما في ظهور الأزياء المحليةمما يعكس مدى ارتباط لباس المتصوفة كذلك بالبيئة و ظروفها .

ثانيا : يلاحظ كذلك أن بعض الملبوسات عرفت إقبالا واسعا من قبل المتصوفة على حساب أزياء أخرى؛ خصوصا لباس الجبة والبدن والإحرام والكساء واحتل البرنس الصدارة لما يتميز لابسه بالوقار والعلية[24]، وهو لباس أهل المغرب منذ القدم، فضلا على العمامة التي يشترك أهل المغرب كذلك في لبسها كما أنها أيضا لباس أهل الفضل لما روي عن الإمام مالك قوله: "لم أدرك أحدا من أهل الفضل إلا وهم يعتمون، كنت أرى في حلقة ربيعة واحدا وثلاثين رجلا معتمين وأنا منهم"[25]، فارتداء العمامة هي من الأزياء الدخيلة على البربر حث عليها المذهب المالكي ورسخها في الممارسات الجمالية الجسمانية المغربية، لأن إنسان المغرب قبل الإسلام كانت نظرته الجمالية أن يكون الرأس حاصرا لقول ابن خلدون أن البربر من ميزاتهم حصر الرأس وتعاهده بالحلق[26].

ومن هنا تكون الفاعليات الدينية من متصوفة وفقهاء وعلماء قد أثروا بأزيائهم المستوحاة من تعاليم القرآن والسنة النبوية الشريفة، وتأثروا بالأزياء المحلية الأصلية، غايتهم في ذلك محاولة الظهور أمام الناس في هيأة الوقار والعلية والاحترام عن طريق الحرص على ارتداء العمامة والبرنس.

ثالثا : تأثر متصوفة المغرب الأوسط في أزيائهم بملابس الأقطار الإسلامية الأخرى؛ فارتدوا الجربي (نسبة إلى جربة) والحارز الاسكندراني (الإسكندرية) والإحرام التونسي (تونس)، وهذا من

آثار المبادلات التجارية وتأثيرها على نوعية اللباس المحلي بالإضافة إلى الرحلة العلمية والسياحية التعبدية التي عرف بها المتصوفة. مما يعني أن لباس الصوفية و الذي يمثل قيما جمالية و يعكس تعاليما صوفية: شكل أحد مظاهر المثاقفة الصوفية بين صوفية المغرب الأوسط و صوفية المشرق و المغرب الإسلاميين.

3- الصوف والتصوف: رمزية المكوِّن ودلالة المعنى:

أشارت المصادر إلى أن لباس متصوفة المغرب الأوسط لم تكن على شاكلة واحدة، و إنما متعددة الأشكال والألوان، فإن غلبت على أذهان البعض أن الخرقة والمرقعة هي الثوب الرسمي لهذه الشريحة فإنهما لا يعنيان لباسا محددا له صفاته ومميزاته، إنما هي صفة ونعت يتسم بالقدم والخِلق والترقيع، لذا فإن أزياءهم لا تخرج بالكاد عن أنواع الثياب للشرائح الأخرى كالبرنس والجبة والكساء والقميص والإحرام وغيرها[27].

ويدخل الصوف كمكون رئيسي في تركيب وتكوين ملابس الصوفية حتى اعتبر البعض أن أصل لفظ الصوفية اشتقاقا من الصوف، نسبة إلى ظاهر حالهم فيقول تصوف إلى لبس الصوف[28]، وقد وقع اختيار المتصوفة على الصوف لأنه لباس مقدس كونه لباس الأنبياء عليهم السلام، فقد روي عن أنس بن مالك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يلبس الصوف وكذلك عيسى عليه السلام، وأن موسى عليه السلام حين كلمه الله كان عليه جبة وسروال وعمامة كلهم من الصوف.

ولباس الصوف من شعار الصالحين وأكابر الصحابة والسلف الصالح من التابعين فقد ذكر ابن صعد حديثا مرويا عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "عليكم بلباس الصوف تجدون حلاوة الإيمان في قلوبكم وعليكم بلباس الصوف تجدون قلة الأَكل وعليكم بلباس الصوف تعرفون به في الآخرة وعليكم بلباس الصوف فإنه يورث في القلب التفكير والتفكير يورث الحكمة والحكمة تجري مجرى الدم..."[29].

و بهذا، فإن هذه الهالة من القداسة التي أحيطت بها مادة الصوف لم تكن اختيارا اعتباطيا بقدر ما كانت انتقاءا عاطفيا واقتداء بأصحاب النبوة والعصمة، ومحاولة لبلوغ الكمال الإنساني عبر هذا التقديس والاقتداء، وبالتالي الرغبة في التحلي بالمثل والقيم العليا عن طريق التشبه بالأنبياء والمرسلين عليهم السلام خاصة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فهو المثال القيمي في المخيال الجماعي الإسلامي لأن "التجربة الصوفية ترمي في نهاية المطاف إلى اتخاذ شخصية رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم مثلا أعلى يقتدى به كل طالب كمال أخلاقي"[30].

ومن أسباب إيثار الصوف على غيرها من المواد - في نظرنا - يرجع إلى سهولة الحصول عليه وهو غير مكلف، حيث يكفي الحصول على الغنم لتحصيل اللباس منه عن طريق غزله ونسجه وهو لا يحتاج عمليات التحوير والتدوير الكثير التي تحتاج إليها باقي المواد كالكتان والقطن والحرير، زد على

ذلك لما له من خصائص فيزيائية فريدة وملائمة لكل الفصول وتقلبات الطقس والمناخ فيلائم الحر والبرد، بالإضافة إلى أن الأغنام من الحيوانات التي استأنسها الإنسان منذ القدم ويتواجد في كل المناطق ويتناسب مع كل البيئات، وإلى ما يوحي به الغنم في المعتقدات الشعبية إلى "البركة والتضحية والقربان والخصوبة والاستكثار ورمزا للحياة النقية الطاهرة"[31].

كما لا يخفى الإمكانات الاقتصادية التي يتوفرها المغرب الأوسط لتوفير هذه المادة من مراع وسهول وسهوب وهضاب ورصيد حيواني ضخم، إذ يكفينا فتح أي مصدر من مصادر البلدان والجغرافيا والرحلة لاستجلاء هذا الأمر، فمتصوفته ليسوا بمنأى عن هذه الأفكار والتوجهات فهم يظلون في نهاية الأمر جزءا من العالم الإسلامي والرسالة المحمدية.

4- لباس المتصوفة وأدبيات التبرك:

و إذا كانت مقاصد اللباس العناية الخارجية فإن المتصوف أعطى أبعادا داخلية تعبدية لمفهومه، وكل الأحوال الظاهرية والباطنية عند الصوفية مرتبطة بالأخلاق والقيم لقول القشيري"الخُلق الحسن أفضل مناقب العبد، يظهر جواهر الرجال والإنسان مستور بخَلقه مشهود بخُلقه"[32].

ولم يكن المظهر الخارجي للعبد في عرف المتصوفة إلا ما يتصل منه بالتقوى والورع والزهد، لهذا فقد أضفى على أزيائهم طابع منقبي يدخل في سياق عام يحكي عن الكرامات التي تظهر على أيديهم، ولباسهم مقدس من خلال "سعي العامة إلى التبرك به والتسامح به وادخاره بعد وفاة الولي فهو من تركته التي لا تقدر بثمن"[33]، فعائلة ابن مرزوق بصفتها القَيّمة على ضريح أبي مدين شعيب في العُباد قد احتفظوا بملابسه كمرقعته وفريكته وسجادته وعكازه[34].

والاحتفاظ بتركة الولي يعبر عن استمرارية البركة والولاية للشخص بعد وفاته، بصفة أن هذه الملابس كانت ملازمة له- وربما كانت كل ما يملكه –، كما تمثل رصيدا ماديا تراثيا مهما رمزيا يتم عرضها أمام الزوار والمريدين، وأن لمسها والتمسح والتبرك بها من أهم الطقوس التي ترافق أدبيات الزيارة والتبرك.

ومن هؤلاء الحسن أبركان الذي كان يحافظ أشد المحافظة على ما خلّفته له أمه من بعض لباسها بل وعلى الهيدورة التي كانت تجلس عليها، يمسك ذلك كله ذخيرة يتبرك به إلى أن مات على ذلك[35]، وولعت العامة بقسنطينة بعلي بن حسن بن قنفذ (جد ابن قنفذ) حتى أنها كانت تُقبّل أطراف ثوبه[36].

5- لباس المتصوفة والتوجهات العرفانية :

تبين مما سبق أن الصوف كان شعار الأنبياء والصالحين والزهاد وعليه سار متصوفة المغرب الأوسط، لكن هذا لا يعني أن كل ولي أو زاهد اقتصر في لباسه على الصوف، إنما كانت ملابسهم كذلك مصنوعة من المواد المتوفرة آنذاك كالكتان والقطن والقنب والملف وغيرها من المواد، بل وأن

الصوف نفسه عرف تطورا فبعدما كان يعرف عن الصوف الخشونة أصبحت تلمسان وما جاورها تنتج الصوف الرفيع اللين؛ وهو القماش الذي أصبح يدخل في تكوين ملابس صوفيتها.

ومن خلال النصوص المتوفرة لدينا حول أصناف لباس المتصوفة يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أصناف:

أ- اللباس الخشن.

من رواد هذا النوع أرباب المجاهدات المتمسكين بالمعنى الحرفي للتصوف والزهد في متاع الدنيا من ملبس ومسكن الملازمين للأذكار والقيام والصيام، ومن هؤلاء أحمد الغماري (ت874هـ) الذي كان لباسه قباء من الصوف وكساء وبرنسا وعمامة كتان خشنة ولا يملك غيرها وجزما من الدوم اليابس يصنعها بنفسه[37]، ووصف أنه في غاية الزهد والورع والتقشف في ملبسه وطعامه وفراشه ملازما للعبادة حتى أضعفت قواه وانحلت جسمه وغيرت وجهه[38].

وغير بعيد عنه كان الهواري (ت843هـ) يستتر بسترة وكساء من صوف خلق أو سلهام[39] مقتديا بذلك بمن سبقه من زهاد الصوفية فهو ممن تجرد من لباس الدنيا برداء أهل الخوف والرجاء، وكان الزيدوري (ت845هـ) يرتدي كساء صوف لا غير [40]وابن البلد التلمساني الذي يتدرج في لبس الخشن عاما بعد عام[41].

و من هذه النماذج نستنتج ،أنه رغم ما أصاب المنظومة الصوفية من تحول عن طريق آراء الطريقة المدينية والشاذلية ، فيما يخص عدم التقيد بلباس الصوف أو الخشن من الثياب أو التقشف ، إلا أن لباس الصوف أو الخشن منه ظلّ الرمز الذي اختصت به الصوفية المتقشفين به في حياتهم اليومية ما ميزهم به عن الفئات الاجتماعية والفاعليات الدينية الأخرى.

ب- اللباس الحسن.

على غرار المنتمين إلى تيار المجاهدات والأحوال الذين آثروا الزهد في الملبس وفي سائر مظاهر الحياة فإنه ثمة تيارا آثر التجمل في الملابس ونظروا إلى التصوف بالمنظور الإسلامي المتكامل كما كان ينظر إليه الشاذلي وأبو مدين وأبو العباس السبتي والغزالي والقشيري[42]، فجاوزوا النظرة السطحية للتقشف والزهد.

ومن روادها بيت المرازقة الواجهة الرسمية للطريقة المدينية حيث عرف عنهم الهيأة الحسنة واللباس الجميل، فأبو العباس ابن مرزوق (ت741هـ) كان مثل والده يتجمل في لباسه حيث كان يرتدي الجربي والمثني والرفيع التلمساني والحارز الاسكندري والأحاريم التونسية[43]، أما ألوانه فمتنوعة كالأخضر والمسني (النحاسي) والهندي، وأن هيأته هذه وعاداته في اللباس لم تفارقه في رحلاته إلى مصر والحجاز إنما بقي بملابسه المغربية[44]، وهي تدل على حرصه في نقل الصورة الحسنة لهيأة وهندام أهالي المغرب والافتخار بمثل هذه الملبوسات ومحاولة تعميمها والإشهار بها وتسويقها.

إضافة إلى متصوفة آخرين عرفوا بحسن اللباس والهندام كإبراهيم المصمودي (ت805هـ) الذي عرف عنه أنه يلبس الكساء الجيد[45]، وكذا السنوسي (ت895هـ) الذي يرتدي لباس أهل الحاضرة المختلف كسوته من فصل إلى آخر، ففي الشتاء يرتدي ثوبا من كتان عليه جبة ومن فوقه برنسا ويضع على رأسه إحراما تونسيا يسدله على ظهره، أما ربيعا وصيفا يرتدي بدنا وثوبا من كتان مع الإحرام ويفضّل البياض ويلبس نعلا أسودا[46].

و كذلك كان صاحب الطريقة التازية إبراهيم التازي (ت866هـ) المنبثقة تعاليمها من التعاليم الشاذلية[47] يدعو إلى إدماج مريديه في المحيط الصوفي وتحقيق مبدأ التصوف الاجتماعي،ورغم أنه كان من أتباع مشيخه الهواري (ت843هـ) الذي عُرف بتقشفه في الملبس، إلا أنه خالف شيخه في ذلك مما جعله عرضة للانتقاد من طرف جماعة من الناس بوهران ، فقد عابوا عليه أحواله في لباسه ومأكله لمخالفته صفات محمد الهواري (ت843هـ) لذلك صنفه ابن صعد (ت901هـ) في درجة الغني الشاكر وهي درجة أفضل من درجة الفقير الصابر عند جمهور العلماء، كونه كان يرتدي البرنوس والإحرام وجبة من ملف خضراء اللون[48].

ج- اللباس بين الحسن والخشن.

و إلى جانب النوعين السابقين ، فإنه ثمة موقف وسط، عكسه صوفية ، كانوا يرتدون اللباس الخشن والصوف والمراقع، و يجعلون فوقها الثياب الجميلة فيظهرون في أبهر وأبهى حلّة،و كأني بهؤلاء يريدون تحقيق صفة الباطن بثياب الباطن الخشنة ..

و من هؤلاء الذين زاوجوا بين الخشن والحسن من الثياب . أبو إسحاق التنسي (ت680هـ)الذي كان مقتصدا في لباسه يلبس مرقعة بين ثيابه وهذه المرقعة عبارة عن جبة صوف سوداء ويلبس فوقها بَدَنا[49] أخضرا أو أسودا وغفارة خضراء أو زبيبية وعمامة على شكل عمائم فقهاء إفريقية[50]، والحال نفسه كان عليه الثعالبي (ت875هـ) الذي يرتدي ثوبا من الشعر ويزيد عليه آخر أبيض ويعتم عمامة عريضة تسدل على ظهره[51]، وهو بهذا يجعل ثوب الشعر ملاصقا لجلده إلا أن من يراه بهذه الهيأة الجميلة يظن أنه من أهل الدنيا وهو خلاف ذلك.

وجعل أبو العباس أحمد الجزائري الزواوي (ت884هـ) هذا السلوك المتمثل في إبطان المرقعة والخشن والتظاهر بالهيأة الجميلة والهندام المتعارف عليه من السلوكات التي يدعو إليها في مجالس درسه وهي من المواعظ التي نقلها لنا الشيخ زروق في قوله: "وكان يشير [الزواوي] علينا بأنه ينبغي لمن وسع الله عليه من الدنيا أن يظهر عليه أثر نعمة الله عليه باستعمالها على وجه يباح ولا يخل بالحق ولا بالحقيقة بأن يلبس أحسن لباس جنسه أو أوسطه ويتخذ مرقعته إن أمكن يجعلها عدته وأصل لباسه"[52].

هذا السلوك الممارس من طرف المتصوفة بحيث يخفون حقيقة توجههم، فظاهر أمرهم خلاف ما هو عليه، وهي محاولة انقلاب فكري عما هو سائد في أذهان العامة الذين رسخت لديهم أن كل لابس لمرقعة أو خرقة أو خشن هو من أصحاب الكرامات وبالتالي إتّباعه والتصديق به ويشيع صيته ويُشاع أمره، وهو ما حاول التنسي (ت680هـ) والثعالبي (ت875هـ) والزواوي (ت884هـ) الابتعاد عنه وتجنبه، بالرغم من أنهم كانوا في قرارات أنفسهم يؤمنون حقا أن اللباس الخشن والصوف يورث الخشية والزهد والورع والخوف وبالتالي الحكمة ومعرفة الله تبارك وتعالى.

و بالتالي فإن هذا التوجه القيمي والسلوكي في اللباس يوحي بالازدواجية الفكرية القيمية بين المعنى التقليدي للتصوف والممارسة الحينية (الآنية) له، وهي من تداعيات الثورة على المفاهيم التقليدية للتصوف التي تولتها الطريقة المدينية و الطريقة الشاذلية واقتنع من الصوفية بتوجيهاتهما .

و من هذه المنطلقات يتضح لنا أن تنوع لباس المتصوفة بالمغرب الأوسط مقترن بتوجهاتهم الصوفية ،الفكرية و السلوكية، فأصحاب المجاهدات زهدوا في الدنيا وتقشفوا في مظاهرهم ولهم في ذلك نصوص تُقعِّد سلوكهم وتؤيّدها، في حين أن أتباع المدينية والشاذلية والتازية تجاوزوا المعنى الحرفي للتصوف، وبدورهم وقفوا على نصوص تبارك مسيرتهم وتوجههم، فضلا على شخصيات لها باعها و قدمها الراسخ في التصوف اختاروا الوسطية. وبين هذا التيار وذاك تفاوت استيعاب العامة لهذه المقاصد والآداب غير أن المهم في ذلك أن الطابع العام للباس متصوفة المغرب الأوسط قد اكتسى طابعا فسيفسائيا غير متناغم الإيقاع.جعل رمزية هذا اللباس تصب في خانتي القيم الجمالية الجسمانية و القيم الروحية من زهد وورع، يتقرب بها العبد إلى ربه مستهدفا كماله العرفاني و محققا لطقس من طقوس الطريقة ونهج من مناهج الحقيقة .

التهميش:

[1] - أبو عبد الله محمد التلمساني الجد الخطيب ابن مرزوق: المناقب المرزوقية، تح: سلوى الزاهري، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2009، ص189،188. المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تح: ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص129.

[2] - ابن مرزوق: المناقب المرزوقية ، ص180،189،161.

[3] - الطاهر بونابي: الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين 8 و9ه/14و15م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الإسلامي الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2008-2009 ، ص508.

[4] - بونابي: المرجع السابق، ص84.

[5] - ابن مرزوق: المصدر السابق، ص158-224.

[6]- محمد بن أبي الفضل بن سعيد التلمساني ابن صعد: روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، تح: يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر ،2009.

[7] - ابن صعد: المصدر السابق، ص47.

[8] - ابن صعد: المصدر السابق، ص45-46.

[9] - آثر ابن صعد في مؤلفه هذا ذكر لباس المتصوفة الذي يتسم بالزهد والتقشف والذين لبسوا الصوف والكساء دون غيره من الألبسة الأخرى، فهو لم يذكر لباس الحسن أبركان وربما السبب كان الاختصار الذي ميز توجهه مقارنة بالآخرين، أما لباس التازي فهو أيضا لم يصفه، ويبدو من ترجمة التازي أنه لم يكن متقشفا في ملبسه ولم يكن من أهل المجاهدات حيث ذكر ابن صعد أن التازي كان مأكله فاخرا ويحب الحلواء، وهذا ما دفعنا لأن نقول بما أن مأكله فاخر فلا يستبعد أن يكون ملبسه كذلك، وبالتالي فابن صعد كان يؤثر تيار الأولياء الزاهدين المتقشفين في ملبسهم وربما كان هو من أهل هذه الطريقة وأتباعها.

[10]- أبو عبد الله محمد بن عمر التلمساني الملالي: المواهب القدوسية في المناقب السنوسية، تح:علال بوربيق، دار كردادة، بوسعادة، الجزائر، 2011.

[11] - بالنظر إلى كتاب وصف إفريقيا للوزان ووصفه الدقيق لملبوس أهل تلمسان فئة فئة، فإن ما كان يرتديه السنوسي كان يختص أهل العلم وليس باقي الفعاليات الاجتماعية الأخرى. الوزان: وصف إفريقيا، تر: محمد حجي و محمد الأخضري، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1983، ج2، ص22.

[12]- أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي: المنتقى في شرح الموطأ، تح:محمد عبد القادر أحمد عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،1999، ج9، ص303.

[13]- الملالي: المصدر السابق، ص68، 71، 296.

[14] - أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تح: محمد بن أبي شنب، ط1، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص 59، 63، 93.

[15]- ابن مرزوق: المصدر السابق، ص280،224،185 . الملالي: المصدر السابق ، 335،334.

[16] - ابن مرزوق: المصدر السابق ، ص280. الملالي: المصدر السابق ، ص71. ابن صعد: المصدر السابق ، ص192. الغبريني: المصدر السابق، ص63، 93.

[17]- ابن مرزوق: المصدر السابق، ص189،185،158. الملالي: المصدر السابق، ص335. ابن صعد: المصدر السابق، ص164

[18]- ابن مرزوق: المصدر السابق ، ص177. أبو عبد الله محمد بن محمد التلمساني ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تح: محمد بن يوسف القاضي، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2010، ص393،79. ابن صعد: المصدر السابق، ص46، 192.

[19]- الملالي: المصدر السابق ، ص334،68، 335

[20]- الملالي: المصدر السابق ، ص334. ابن صعد: المصدر السابق ، ص192،164.

[21]- ابن صعد: المصدر السابق ، ص46. 187. 192.

[22]- ابن مريم: المصدر السابق ، ص195.

[23]-الغبريني: المصدر السابق ، ص 93،71،63،59.

[24]-كان البرنس يرمز إلى الثروة والغنى واليُسر والسلطة والقوة، كما له بعض التأثيرات الخفية جعلت منه رمزا للحماية. محمد مقر: اللباس المغربي من بداية الدولة المرينية إلى العصر السعدي، ط1، منشورات وزارة الأوقاف- دار أبي رقراق للطباعة، المملكة المغربية، 2006، ص255.

[25] - الباجي: المصدر السابق،ج 9،ص301.

[26] - أبو زيد عبد الرحمن ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2010، ج6، ص116. وقد أشار الباحث محمد مقر أن عادة تغطية الرأس لم تكن شائعة لدى الكثير من الناس إنما هي شائعة لدى الخاصة من الحكام والحاشية والجند والفقهاء والأعيان. اللباس المغربي، ص181.

[27] - محمد مقر: المرجع السابق ص 253.

[28] - ابن صعد: المصدر السابق، ص46.

[29]- المصدر السابق ، ص193.

[30] - عبد المجيد الصغير: التصوف كوعي وممارسة - دراسة في الفلسفة الصوفية عند أحمد بن عجيبة -، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1999، ص173.

[31]- محمد مقر: المرجع السابق، ص253.

[32] - القشيري: الرسالة القشيرية، ط2، دار الجيل، بيروت، 1990، ص241.

[33] - محمد مقر: المرجع السابق، ص256.

[34]- ابن مرزوق: المصدر السابق، ص172.

[35] - ابن مريم: المصدر السابق، ص111.

[36] - أبو العباس أحمد بن حسن ابن قنفذ: شرف الطالب في أسنى المطالب، تح: محمد حجي، ضمن كتاب: ألف سنة من الوفيات، مطبوعات دار المغرب للتأليف و الترجمة والنشر، الرباط، 1976، ص78.

[37]- ابن صعد: المصدر السابق، ص187-192.

[38]- ابن صعد: المصدر السابق، ص186.

[39] - ابن صعد: المصدر السابق، ص46.

[40]- ابن مريم: المصدر السابق، ص393.

[41] - ابن مرزوق: المصدر السابق، ص185.

[42]- عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر، الجزائر،2002، ج2، ص400.

[43]- المقلة: بضم الميم وسكون القاف كلمة عامية، وأطلقت على نوع من العمائم. رجب عبد الجواد ابراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2002، ص475.

[44]- ابن مرزوق: المصدر السابق، ص224.

[45]- أحمد بابا التنبكتي: نيل الإبتهاج بتطريز الديباج،تح:علي عمر،ط1،مكتبة الثقافة الدينية،القاهرة،2004 ،ج 1، ص44.

[46]- الملالي: المصدر السابق، ص334-335.

[47]- بونابي: المرجع السابق، ص525.

[48]- ابن صعد: المصدر السابق، ص164.

[49]- البدن بفتح الباء والدال شبه درع إلا أنه قصير قدر ما بكون على الجسد فقط، قصير الكمين. رجب عبد الجواد: المرجع السابق، ص49.

[50]- ابن مرزوق: المصدر السابق، ص 280.

[51]-ابن صعد: المصدر السابق، ص71.

[52] - التنبكتي: المصدر السابق، ج1، ص133-134.